أميرة الطاعون

مجموعة قصص

صالح أبو أصبع

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

أميرة الماء

قصص قصيرة

طبعة الكترونية

أميرة الماء

قصص قصيرة

(الطبعة الأولى ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر – 1978)

صالح خليل أبو أصبع

الفهرس

1- المسعودي يحمل راية خضراء	7
2- الام	15
3- السراب	23
4- الخطيب	31
5- مات الشوق	35
6- الثلج ينبت خنجرا	43
7- الجيزاوي يهديني رشاشا	51
8- الحب من جملة	61
9- النهر والقتلة	92
10- اميرة الماء	73

المسعودي يحمل راية خضراء..

حينما نزل الأعداء قريتنا، كانت مظلاتهم تهبط وكأنها (بالونات) كبيرة.

كنت اسمع أشاهد في الخيالة وأقرأ عن مقاومة الأعداء.

الآن لأول مرة في حياتي نواجههم.

بالنسبة لي لم يكن الأمر مألوفا، كنا بعيدين عن المنزل، الضيوف جاءونا من بعيد، فاليوم يوم راحة أسبوعية، يوم مشرق تماما، الأرض مخضوضرة، والجبل الذي تعيش في حضنه قريتنا مكسو بالأشجار، كان علي أن احتفي بالضيوف، كما يحتفي أي مواطن في قريتنا بأي زائر يأتيه. خرجنا بعيدا عن البيت، كنا ثلاثة شبان وصبايا وعجائز وأطفالا، كانت قريتنا وادعة، ولكنها جربت فيما مضى كيف تفقد أبناءها وهم يقاومون الأعداء.

ما زالت العجائز والشيوخ في قريتنا يذكرون حكايا كثيرة عن روح "سيدنا المسعودي" التي تحوم فوق قريتنا، وتحميها.

قالت جدتي:

"كنت صبية حينما جاءني المسعودي على "العين"، كان يرتدي ثيابا خضراء ويحمل بيرقا أخضر، ويركب فرسا خضراء،

وعلى جنبه يتدلى سيف طويل لم أشاهد نصله، ولكن قدر لي ان أتخيل كم هو بتار.!

كان وجه "المسعودي" مشرقا، كأن النور وجهه.

قال لي:

"يا مسعودة"– وهذا هو اسم جدتي، ولعلهم أسموها كذلك تبركا باسمه –بلدتكم مباركة، وأرضكم مباركة، يأتيكم الأعداء من كل حدب وصوب، ومن السماء يأتونكم لا تجزعوا، وتيقنوا أنكم لمنتصرون.

لم تكن هذه أولى الحكايا عن المسعودي أو آخرها. فالأحاديث تتوالى:

كيف جاء؟. كيف اختفى؟ ومن نال حظ رؤيته لا بد أن يكون صالحا..

صرخت جدتي، وكنت أتابع تقاطيع وجهها، إذ ارتسمت على محياها تعابير ممزوجة بالصرامة وبالتحدي والحزن.

"يا مسعودي، يا مسعودي، ها قد جاءوا، ها قد جاءوا"

كانت جدتي تنظر إلى السماء وكان علي أن أتصرف بسرعة كي أؤمن سلامة رفقتي.

لم نكن قد خرجنا من بيوتنا هذا اليوم وحدنا، فأهل قريتنا تعودوا أن يخرجوا عند عين الماء، يأخذون طعامهم، ذلك الخبز القروي الأسمر، وذلك النوع البري من العشب الذي يجففونه ويسحقونه مع مكونات أخرى، فيصنعون منه زعترا، ثم زيت الزيتون والبصل الأخضر، والفلفل الأحمر المطحون، وكان دليلا على إكرامنا للضيوف أن أخذنا معنا بيضا مسلوقا وقرصين من الجبن ، وحلاوة الطحينية.

لحظة نزول الأعداء كنا نحن والضيوف، نتناول الحلاوة الطحينية، إيذانا بانتهاء طعامنا.

كنا أول من لمحهم، كانت اللقمة جافة في حلقي، حينما شاهدت طائرة تدنو وتدنو ولكن ذلك بالنسبة لي– أو للجميع لم يكن ذا تأثير كان أزيز الطائرة يكاد يصم الآذان، وفجأة شاهدت بابا ينفتح فانخلع قلبي، وابتدأوا يقذفون بأنفسهم واحدا تلو الآخر.

شربت ماء لأجعل للقمة الجافة طريقا، ولأبلل حلقي، الذي شعرت كأن الماء لم يصله منذ فترة.

قلت بلهجة واهية انهم آتون، وانتفضت، كان زائري يجلس قبالتي ولم يقدر له أن يشاهد شيئا.

قال: من.؟

أجبته: الأعداء.

تساءل: أين ومتى.؟

صرخت انهضوا انهضوا.. انهم يدوسون وجوهكم الآن.. كان أول جندي منهم قد نزل الأرض.

لم اكن اعرف ماذا سأفعل، كثر الهرج والمرج، وكان علي أن أتمالك نفسي واحتفظ بقسط ما من الشجاعة، بدأنا الزحف نحو قريتنا، وطريق العودة إليها ليس بعيدا، ولكن الخوف كان يدب في مفاصل الكثيرين، وكان علي أن أكون أكثرهم شجاعة.

لم يعد هناك مجال للشك بأن الأعداء يريدون قريتنا، وقريتنا لها أهمية كبيرة، تؤمن لهم المواصلات، و "تسيطر بمكانها المرتفع" على منطقة كبيرة وتحمي ظهورهم.

الأطفال يصرخون، وجدتي تتمتم "يا الله، يا رسول الله.. يا مسعودي" وكان وجه العجوز صارما وشاهدت الحيوية تتدفق فيه.

كيف يمكن لي أن أعود إلى القرية؟ والأعداء هنا ينزلون واحدا تلو الآخر يطوقونها، وبعد قليل سيبدأون ألعابهم المسلية..

تفتيش القرية.. حجز شبابها.. اطلاق الرصاص على أول من يتفوه بكلمة في وجوههم.

"المسعودي... المسعودي..." كانت صرخات جدتي.. وكنا على أعتاب القرية، وقفت جدتي عند باب مسجدها وأخذت تقول:" ها هو انظروا انه يخرج من بابه حاملا سيفه، انظروا.. ها هو على فرسه يتقدم نحو الأعداء".

ضحكت في سري، ولكن قلت: لم لا.؟! لم لا يأتي مسعودي يركب فرسا ويقاوم الأعداء أليست هذه الأرض أرض المسعودي؟

وصرخت مع جدتي، ها هو المسعودي انظروا، ها هو يقتل أحد الأعداء.

صرخت بالشباب:

– إلى بنادقكم.

كانت أسلحتنا قديمة، بنادق لا تتسع لأكثر من خمس رصاصات.

بدأت همسات الشباب والرجال: أصحيح أن المسعودي جاء يحمل سيفه.؟!

كان المتعلمون قلة ، أربعة في القرية فقط، أحسنهم حظا كنت أنا، سألوني ما رأيك.؟

لم اجب، بل بادرتهم بلهجة خطابية بها رنة افتعال لاستشارة الهمم:

: أيها الرجال قريتكم في خطر، الأعداء حولها من كل جانب، والله إنكم الآن كما قال طارق بن زياد في رجاله: الموت يحيق بكم من كل جانب، الأعداء من أمامكم ومن خلفكم ومن كل جانب وليس لكم إلا النصر أو الاستشهاد."

شرحت لهم الخطة التي يجب علينا أن نبدأ بها الهجوم على الأعداء قبل ان يتدبروا أمرهم.

كنت أتوقع أنهم سيتجمعون عند نبع الماء ومنه سينطلقون قلت لصحبي: علينا أن نقتل ما نستطيع وأن نجمع من سلاحهم ما نقدر، ولتكن أسلحتنا الجديدة ما نغنمه من الأعداء. أحسست بمشاعر شتى وأنا أتقدم الصحاب من خلف الأشجار، كنت أشاهد واحداً من جنود الأعداء يحاول التخلص من مظلته، قلبي خفق بشدة، لأول مرة أتقدم لأخوض معركة، وها أنا مسؤول عن مجموعة.. كيف كان هذا.؟ ولكن فجأة وجدت نفسي ألقي الأوامر وهم يستجيبون.

شرحت لهم وجهة نظري لبدء الهجوم، وأشرت بالصمت، أخذت خنجراً من أحد الرفاق وتسللت، وحالما أصبحت خلف ذلك الجندي مباشرة.. كان علي أن أغمد الخنجر في ظهره، ترددت كثيرا، ونظرت خلفي.. رأيتهم ينتظرونني مشجعين، أغمضت عيني، وكان ما يزال يحاول فك حصار المظلة من حوله، وكانت أصوات حفيف الأشجار، وصراخ أصحابه الذين علق بعضهم بالشجر تعلو وتستر صوت خطواتي.

لحظتها رأيت وكأن خنجري صار طويلا، وشاهدت رجلا أخضر يركب فرسا خضراء وهو يبتسم، يتقدم بسيفه ليطعن العدو فيتأوه.. كان الجندي يقول آه.. وأحسست بقوة جبارة تجتاحني، ومشاعر كره فظيعة لهذا المخلوق الذي هبط من السماء، يجلس على أرضي ويقتل أهلي.

لم أتوان وأنا أشاهد الرجل الأخضر– كما خيل لي– حاملا سيفه ويطعن ذلك الجندي، لم أتوان في توجيه عدة طعنات إلى رقبته وظهره فانبثق الدم.. مع صرخات مكتومة وآهات ممزقة، كدت أهرب.. الدم.. الموت!.. ولكني تذكرت من ينتظرني، استطعت أن أسحب مسدسه ورشاشه وذخيرته، أعطيتهم إشارة التقدم، كان أحد

رفاقي ساكناً، ذهبت لأشجعه.. كان يرتجف، ولم استطع ان افعل له شياً، كنت بحاجة إلى من يشجعني. \ "المسعودي، يحمل راية خضراء وبيده سيف".

صرخت به.. انظر انظر "ها هو المسعودي يحارب معنا.. لقد قتلت الجندي.. هل تظن ان الخنجر هذا يقتل أحداً؟ المسعودي طعنه بسيفه".

ثم قلت لزميلي الخائف:

خذ.. هذا مسدس حديث استعمله.. فانه سيغنيك عن بندقيتك الخالية من الذخيرة.

لم أتابع حديثي معه، إذ سمعت أصوات الرصاص، يتبادلها الرفاق مع الأعداء، فأمسكت الرشاش الجديد بثبات، وأخذت أطلق النار، لم أسمع صوت الطلقات من الجهة المقابلة.

تقدم أحد الرفاق، وتسلل ليعود مبتهجاً برشاشين ومسدسين، وقال بلهجة منتصرة واثقة حتى لا نضحك منه:

"شاهدت المسعودي، كان يضحك لي.. كان يضحك لي.. كان سيفه لامعا بتارا، رأيته يقتل جنديا بسيفه.!".

كان خنجر صاحبي مغمساً بالدم، وابتدأت النيران تتكاثف، واستطاع الرفاق أن يؤمنوا أسلحة جديدة، سقط منا ثلاثة شهداء.

كان علينا أن ننسحب بغنائمنا، وصعدنا أعلى الجبل في أحد الكهوف، ألقينا نظرة على القرية الوادعة، كان الجند نحوها يتقدمون، رأيناهم يجمعون أهل القرية، ومن تبقى من شبابها.

سمعنا اطلاق النار، رأينا جثتين تهويان على الأرض في ساحة القرية.

وتساءل أحد الرفاق:

– لماذا لا نهجم عليهم.؟

قلت بمرارة:

– لا .. لا.. هجومنا سيعني مزيدا من الضحايا، سوف يكون أبناء القرية بالنسبة لهم حماية يساومون بها. من هنا نحاربهم.. من هنا..

ثم ابتسمت.. وقلت:

– هناك المسعودي.. المسعودي معهم.

وتساءل أحد الشباب وكان يبدو انه لم يصدق شيئا عن المسعودي وحكايته.

قال:

– أين هو المسعودي هذا، ليحمي القرية ويعيد للشهداء الحياة.

لم اكن بحاجة إلى الكلام.. كنت اشعر بما يشعر به الشباب، ولكن عندما تفقد أشياء كثيرة في نفوسنا إلا نكون بحاجة إلى المسعودي.؟.

سؤال سألته لنفسي.

وكنت اسمع صوت طائرة قريبة للأعداء، بينما ذهني معلق بصورة المسعودي يركب فرسا خضراء يطير، ويحمل سيفا، ويلقي قنابل.

وضحكت.. ضحكت..

وكان الشباب ينظرون الي باستغراب، بينما كان أحدهم يلف سيجارة، وآخر يراقب من باب الكهف ما يجري.

*****

الأم

تركض ويركض قلبها معها.. طلقات للنار رســـمتها وهي في الســـوق الأقدام تغذ خطوها، وعيون الذعر تنطلق في كل اتجاه يمينا وشـــمالا والى الخلف ثم ترتد الى الامام.. وركض الجميع... مثلهم ركضـــت توقفت.. الناس يركضـــون... توقفت... ثم جرجرت رجليها، وقلب المؤمن دليله.

الناس يســألون... ماذا جرى..؟! ويســألون ولا ينتظرون الاجابة. البعض يجيب ثم يعود ليسأل.. ماذا هنا؟؟.. طفل صرخ بأعلى صوته: قتيل على باب الجامع.. شخ قال: يهودي. جندي يهودي، ثم تابع بهمهمات تصـــدر من أعماقه.. الفدائيون.. فرك يديه بفرح. سلمت أيديكم التي تضغط على الزناد.؟

ســـيارات جيش الدفاع الإســـرائيلي.. زامور الخطر يتصـــدرها.. تهرع نحو مكان الحادث. وجدوا ورقة عند الجثة منقوش عليها كلمات قليلة.. وقعها الفدائيون العرب.. درب الذعر.. أخذت المتاجر تقفل أبوابها.. بينما ظل المقهى الرئيســـي على حاله.. البعض فيه يلعب الورق.. آخرون يلعبون النرد.. والبعض يكركر بنرجيلته.. تظاهروا باللامبالاة..

يركضـــون.. الناس.. هنا وهناك في شـــوارع خان يونس وأزقتها.. ينعطفون ويركضون.. بادئ الأمر ركضت مثلهم. ثم انخلع قلبها.. تقدمن نحوها الشيخ..

– يا حاجه أسرعي انهم لن يرحموا شيخوختك..

نظرت إليه وصـــمتت.. وحتى لو رحموني فماذا ســـتكون رحمتنا.. ماذا تبقى لنا يســتحق الرحمة.. قبل الحرب الأولى كنت صــغيرة.. قتلوا أبي... ماذا تركوا لنا ســوى بطاقة إعاشة.. وأين.. ابني حبيبي...؟؟؟

هل أبقوه؟ انخلع قلبها فأمســـكت عن الحركة.. ابني ماذا جرى له.؟ منذ دخولهم.. وهو يبتعد يوما بعد يوم عنها.. هي تأكل من بطاقة الإعاشة... وهو يغرق في الفلوس.. اصبح يعاقر الخمر.. يعاشر النساء.. كما فاحت رائحة حكايته.. لم تصدق.. رفضت نقوده.. وهو ابنها.. أبوها مناضل كبير استشهد.. اخوتها في الضفة الغربية لم ترهم منذ النكبة إلا بعد الاحتلال.. أبناء اخوتها استشهدوا..

– يا ولية تحركي.. قال لها الشـــيخ ذلك، ثم جذبها من كمها.. وجرجر خطواته الواهنة وهي معه.. ثم انطلقت رصاصات من رشاش.. كانت أفراح الجماهير تتدافع في كل اتجاه..

– وسألت لأول مرة ماذا جرى.؟!

– فدائي بطل (طخ) يهودي.. أجابها العجوز..

يهودي.. فرحت.. نزغرد. لا فلترقص.. وأحست براحة عميقة.

– هل رأيته.. هل رأيته.؟

– لا.. من سيكون اذا لم يكن يهوديا.؟

–.....

– قد يكون خائنا.. والخائن يهودي أليس كذلك.؟

– خائن.؟!!

– ويستحق مائة رصاصة بين عينيه.

مدت يدها إلى الجبين بين العينين.. وتسمرت في مكانها.

– يا ولية تحركي ما بك.؟

– أريد أن أرى القتيل.

– هل جننت؟؟! واحد فطس في جهنم مالك وماله.؟

–.....

– امشي يا بنت الحلال..

ثم امسك بيدها وأخذ يجرجرها..

دارت السيارات العسكرية المدججة بالجنود الإسرائيليين.. تطرق أنحاء خان يونس ومخيمها.. تعلن حظر التجول.. وان من سيخالف الأوامر ستطلق عليه النار فورا.. أقيمت حواجز على مفترق الطرق.. فيها نقاط تفتيش دقيق.. للنساء والشيوخ والأطفال والرجال..

من عند نقطة تفتيش مر وهو يجذبها غير آبه بالجنود..

– قف!! صرخت به..

ابتسم الشيخ وعاد إليهم والعجوز معه..

في أذنها همس.. فدائيون.. فدائيون نحن.. يا ليت, يا ليت شبابنا يعود ونصبح فدائيين..

تمت اجراءات التفتيش الدقيق.. اطلعوا على الهوية.. العجوز فتشـــوها.. أمروهما بالتحرك ومغادرة المنطقة بسرعة..

عاد الشـــيخ يقول لها وهو ينز رأســـه بحســـرة.. فدائيون.. نحن فدائيون يا ليت يا ليت.. يا مرحبا بالموت لو نقدر.. أتعرفين يا حاجة

نفسي بماذا..؟ نفسي "أطخ" جندي من أولاد الكلب.. وبعد أموت!... أولاد الملب يريدون ان يذلونا".

ســـــارت معه.. لا تســـــمع ما يقول.. لكنها كانت تفكر بالعودة إلى الجامع لترى القتيل.. ألحت على ذهنا.. الفكرة... ثم طردتها من ذهنها.. حينما اســـتشـــهد والدها استقبلت أمها وحماتها نبأ الاستشهاد بالزغاريد ,عاد رفاقه يحملونه على أكتافهم... يلفون بقطعة قماش ملونه.. تذكرت الألوان... ســـوداء... بيضـــاء.. خضـــراء.... حمراء.... وتذكرت جنازته كم هي مهيبة.. مات ويده على الزناد... يصـــد مع رفاقه هجوما شـــنه الصهاينة على قريتهم التي طردوا منها.

أخذت الحركة تهدأ.. وسألها الشيخ.. أنا ذاهب إلى معسكر خان يونس ألا تسكنين هناك؟... سارت معه في أزقة المعسكر اللاجئية الضيقة... ثم تذكرت أنها اجتازت بيتها الذي وهبته لها وكالة الإغاثة.. سحبت المفتاح من صدرها... أحست كأنها استلت من صدرها سيفا تقتحم به عالما مجهولا... أمسكت المفتاح الذي طوله طول شبر بيدها... وقبضت عليه بطريقة مسدسية فأدارته في قفله.. ثم أمسكت عن فتح الباب.

ندهت على ابنها... بصـــبصـــت من عين القفل.. من هناك؟.. ثم ألصـــقت أذنها بالباب.. هي تسمع صوتا ما.. كان وجيب قلبها مرتفعا.. من هناك.؟!

ثم فتحت الباب بســـرعة واندفعت داخل حجرتها.. دارت داخلها مرتين.. ثم وقفت ســـاهمة.. ماذا بها.؟ نظرت من نافذة حجرتها.. أحســـت بانســـحاق الحركة. الناس في بيوتهم.. لكن أرجلا تركض بخفة ونشاط تنتقل من زاوية إلى أخرى..

التفتيش عم المنطقة بأســـرها... أوقفوا آلاف الشـــباب والشـــيوخ والأطفال والفتيات واختاروا مئات المشبوهين.. جريمة وقعت.. صـار عيونهم سلبت... لا بل عيونهم فقئت فلم لا يحجزون اكبر عدد من الناس ليعرفوا الفاعل.

بين السـكان طار النبأ.. اسـعد قتل عند باب الجامع.. رصـاصـات مزقت أحشـاءه وأخرى شقت جمجمته.. سلمت يدا الفاعل..

كـانت تريـد ان تعرف مـا يـدور حولهـا.. الجيران يعرفون.. لكن أحدا لم يقل لهـا. حظر التجول شل قدرتهم على التحرك أو النطق.

صـــوت ســـيارات تمخر في عباب بحر الصـــمت.. وينطلق زامور قوي يعلن وجود قوات الاحتلال هنا، كما أعلن عند باب الجامع... الصـوت يقترب.. أحسـت العجوز ان الصوت قرعات تصم الآذان.. الصوت يؤذيها.. يتحداها..

ألقت نظرها عبر النافذة.. لترى.. قذفت عيونها.. لترى.. كان طابور الســـيارات طويلا.. لم تميزه أول مرة فاعتلت الطبلية ألقت ببصـــرها على امتداد الأفق... رأت مجنزرات وسيارات جيب تعج بالمسلحين... عليها نجمة سداسية... سيارة جيب عليها علم ازرق في وســـطه نجمه... فركت عينيها.. ورأت ســـيارات إســـعاف تتوســـط هذا الموكب.. ماذا يريدون منا؟.. هل تركوا لنا شيئا..؟ جاءوا ليفتكوا بنا..!

اخذ الموكب يقترب.. وكأنه يقصـد نسـف بيتها.. هكذا تخليت فأحسـت بالنشـوة وبسعادة تجتاح جسدها الضئيل.. التفت المدرعات والسيارات حول البيت وسمعت دقات خفيفة على باب بيتها فلم تجب دقات أقوى..

- من هناك؟

– أنا المختار يا أم أسعد.. افتحي..

المختار.. جاء معهم.. ي ويل جاء به المختار..؟ ها قد ينسـفون بيتي.. المختار جاء لينذر.

لكنها فزعت. ان بباب الجامع قتيلا..

– ماذا هناك؟ صاحت ام اسعد ابني.. اسعد يا مختار.؟

– افتحي يا ام اسعد..

فتحت الباب.. كان المختار يقفا بجواره اسـرائيليان لا تعرف رتبتهما لكنهما بالتأكيد ضابطان.. جنديان يحملان على نقالة اسعاف جثة..

ابوها حثنما جيء به.. كان ملفوفا بعلم.. زغردت أي حينما مات قالت عنه شـهيد في سبيل الله والوطن..

قالب المختار: ابنك يا ام اسعد ما..

قاطعته.. مات.. مات.. ويحمله اليهود على اكتافهم.. ابتسـمت كان الجنود قد دخلوا بالجثة الى ساحة البيت الصغيرة.. عزفت موسيقى جنائزيه.. ادى الجنود التحيه..

تحدث ضـابط اسـرائيلي وقال بعربية ذات لكنة.. سـوف نعرف الجناة.. سـنحاسـبهم.. لا تحزني على ابنك سنعوضك كل ما خسرته.

نظرت اليهم.. كانت عيناها تذهبان يمينا ويســـارا.. لا تســـتغربي.. كانت الجثة بنعشها امامها.

اخرجوه من هنا.. اخرجوه من هنا.. صـرخت بجنون وهي تبكي.. كشـف المختار عن وجه القتيل.. قال: ام اسعد انه ابنك.؟

كان المنظر مخيفا.. هو ابنها حقا.. لكن تســاءلت فيما اذا كان ابنها يأتي محمولا على اكتاف جنود الاعداء.

– ابني.. من قـال يـا مختـار ان هـذا ابني.. هـذا ابنهم.. ليس ابني ليس ابني.. اخرجوه من هنا..

الضـابط وقف مسـتغربا.. هو ابنك ايتها العجوز.. هو ذا اسـعد.. وامه انت.. انت ام اسعد.. وابنك اسعد جئناك به..

– لا .. ليس ابني.. ابني مات منذ ثلاث ســنوات.. مات اســعد منذ ان عرفكم.. اخرجوا.. اخرجوا..

هز الضــابط رأســه مســتغربا.. المختار لم ينبث ببنت شــفة.. دمعات نزلت من مآقيه.. "اخرجوا .. اخرجوا".

امر الضابط بجمل الجثة.. فحملوها..

سـار الموكب وزامور الخطر .. توت..توت..توت.. ثم انخرطت ام اسـعد في بكاء مرير ونشيخ متصل.. يعلو صوته صوت زامور الخطر..

السراب

كانت صحراء وكان عبدالمولى وحيدا، حينما خانته سيارته فاجتاح محركها الخلل، وبلا خبرة حاول جهده ان يصنع شيئا لها. واعيته الحيلة فمال على مقود سيارته متكئا جاعلا رأسه فوق قرص المقود، فانطلق صفيرها مدويا.. كان قد استرسل في اغفاءة قصيرة.. فهب مذعورا صائحا مخاطبا من حوله:

"أنت.. من انت ...؟ لماذا تقف هكذا كالأبله..؟ تغني.. تغني اغنيات اكفال من انت..؟؟).

كان عبدالمولى يتميز غيظا..

"يا أنت لم كل هذه النشة.؟ انني ارغب في ان تمشي سيارتي، ولكنك تقف مسرورا كأنك تمشت بي.. ها قل لي ماذا تريد.؟ وجودك لا يؤنسني.. انت تشعر بوجودي لذا تضحك.

هذه الصحراء يخيل الي انها لم تكن طيلة عمرها مقصدا لأي عابر سبيل حتى لو كان خائبا مثلي.

ماذا جاء بك عبدالمولى حتى رسى بك هذا المرسى السيء... أي خظ عابر هذا الذي اتى بك.؟ حتى تتلقلك هذه الصحراء الغافرة فما يبتلغ الجمل والسيارة والانسان.. أي قدر هذا الذي رمى بك الى صحراء ومجنون..؟"

المجنون يقف مشدوها حول السيارة وواضح تماما انه لم يركبها (او هكذا خيل لعبد المولى) كان يدور حولها وهو يتلمس سطحها الأملس الداكن فتلسعه حرارتها ويعود وينظر ثانية حول نوافذها، ويلقي ببصره من خلفها.

كان عبد المولى يلتزم الصمت وكان يراقبه.. بعد ان كل من محاولة إصلاح السيارة . مل، ثم جلس خلف مقودها ينظر فرج الله. "لماذا تنظر لي هكذا..؟".

بصوت عال ونبرة حازمة قال عبد المولى ذلك.. وفرك عينيه، كانت الصورة تهتز كغبش أمامه.. ظل عبد المولى يراقب واخذ يقفل زجاج السيارة.

"ماذا تفعل يا عبدا لمولى لو ان هذا الغريب استظرف شيئا واراد ان يتناوله.؟ ماذا لو اقدم على فعلة حمقاء.؟ ادفع حتى الموت.

الموت.. أي موت تعني وأنت تعيش الموت كل يوم.. اتعتبر حياتك هذه حياة.؟ تعيش في الصحراء وأهلك تتركهم على بعد آلاف الأميال وتعيش في الصحراء وحيدا تجمع القرش فوق القرش.. وحينما تعود إلى قريتك يظنك أهلها البسطاء مليونيرا هبط

إليهم من قارون ولكن لو يدرون كيف تجمع القرش تلو القرش آه، لو يدرون؟.. إذن لعرفوا انك ميت في جوف حي".

"انظروا... انظروا"

لقد اخذ الرجل يضرب بشدة زجاج السيارة "هكذا توهم عبد المولى" نعم يضرب بشدة إذن سيكسر الزجاج.. كان وجهه طفو ليا وأحسست بأن ضرباته شديدة، كان ذو شفتين غليظتين جافتين تماما، كان يلهث كأنه قطع عدوا عشرة أميال متتالية.

اخذ جسده يتطاول، وعيناه تجحظان وشفتاه تتدليان.. كيف يا عبد المولى يمكن بأن تستميله.؟ ابتسمت. مددت يدي خلفي وتناولت زمزمية الماء.. لعله ظمآن.. قلت ذلك في نفسي فتحت باب السيارة جاءني مسرعا، ولم ينظر ان أحدثه، واخذ يكرع ماءها.. يا له من ظمآن..!!

كان بحوزتي علبة بسكويت ناولته قطعا منها.. التهمها في لحظات.. يا له من جائع..!!

ابتدأت تعابير وجهه تسترد معاني جديدة.. جسده عاد إلى طوله السابق، عيناه وشفتاه استعادتا طبيعتهن..

هل ظلمته.؟

لم يكن شريرا ولا مجرما.. ولا قاطع طريق..

- ما اسمك.؟

ضحك طويلا، واخذ يغني أغنية جذلى اعتدت سماعها من الأطفال. كيف يمكنني ان أتفاهم معه.؟

- هل تريد ماء.؟

هز رأسه بالنفي..

- إذن أتريد ان تأكل.؟

أومأ برأسه نافيا كذلك..

– اين تسكن.؟

أشار بيده ليفهمني انه في كل هذا الكون.

- هل تركب معي.؟

لم اسمع منه جوابا، إذ كان قد سبقني إلى المقعد.

الجو حار في هذه الصحراء.

هز رأسه بإيجاب.

– أأنت متزوج.؟

وحرك رأسه دون ان افهم ماذا يعني.

أحاول إشعال السيجارة وهو ينظر.. كللت.. أخذت الترانزيستور أدرت المؤشر على المحطة.. كانت تبث أخبارا.. واخذ يستمع بتركيز سألته:

– هل تسمع.؟

هز رأسه بالإيجاب، فقلت في نفسي إذن هو عربي، لو ينطق هذا الرجل.. لا يعرف سوى أغنيات الأطفال وان يهز رأسه من أي دنيا جاء..؟ وهذه الصحراء التي تبتلع الإنسان هل تبتلع اللسان أيضا.؟

قلت " سيارتي تعطلت كما ترى.".

.....

– لا اعرف الخلل الذي اعترى محركها.

.....

لم يجب .. وقررت ان أتابع الحديث معه.

هل تمر سيارات كثيرة من المنطقة.؟

انا اعمل مع شركة كبيرة محترمة.. وعندي نقود لا بأس بها.. رحلات الصحراء هذه تكلفني كثيرا من الجهد.. لكني أقوم بها.. الحياة صعبة أليس كذلك.؟ ظل صامتا..

مددت يدي تناولت قطعا من البسكويت.. التهمتها.

– هل تأخذ شيئا.؟

لا يرد .. لا يتحرك..

اشعر بدوار شديد.. ساعات طويلة في صحراء لا تعرف لها وجها من ظهر، لولا هذا المذياع لانقطعت عن كل الدنيا..

أهلي يسكنون بعيدا.. والذي قال لي انك تقابل أحيانا أناسا لا تعرفهم، ويجدر ان تكون مؤدبا معهم.

.....

– أتسمعني.؟ والدي عودني على ذلك "بصوت اقرب إلى الصراخ قال عبدا لمولى ذلك".

.....

– والدي قال لي أن من الأدب إذا سألك أحد ان تجيبه..

.....

– اني أحدثك لا تخرجني عن طوري.. حادثني كما أحدثك..

كان عبدالمولى قد استشاط به الغيظ، وأعصابه انهارت تماما.. وبدأ الليل يرخي اسداله وهو لا يرى شيئا ولا يسمع.

الماء لا يكفي أياما. والبسكويت كذلك لا يسده إلى الأبد.. ومن اين يأتيه الفرج في هذه الصحراء الفاغرة فمها.؟ ألن تبتلع حتى من يفتشون عنه؟.

فكر عبدالمولى ان يتجول لعله يرى أي خيط أمل.. ومشى وهو يتخبط.. وأخذ يركض بجهد منزوف بكل اتجاه شرقا، غربا، شمالا، جنوبا.. وكان يرتد مرة أخرى إلى سيارته فيجلس منهكا، ويرتمي على المقعد خلف مقود السيارة.

ويتحدث:

– ها قد رأيت كم تعبت إلا تدلني على إنسان.؟ لماذا لا تحدثني.؟

أدار مذياعه.. كانت أنغام موسيقية عذبة تنساب إلى مسامعه، وسرح خياله.. فتاة جميلة يأخذها بين أحضانه ويرقصان ويلعبان ويجريان الى البحر، وتقذفه بالماء ويقذفها بالماء.. ويتراكضان.. ويتضاحكان.. يدخلان البحر.. يشربان المرطبات تحت مظلة يبنيان بيوتا من رمل.. رمل .. رمل والرمل ها هو الآن يسبخ فيه.. يغرق فيه.. واستيقظ من أحلامه إذ توقفت أنغام الموسيقى فجأة.. وجاء صوت مذيع أجش يعلن عن فقدان

"عبدالمولى وحيدا" في الصحراء خرج عبد المولى وحيدا في مهمة اعتيادية إلى الصحراء و.. لم يقل المذيع ابتلعته الصحراء.. قال ويجري البحث عنه بطائرة عمودية تغطي مساحة مائة ميل مربع.

عبدالمولى صرخ فرحا "انهم يبحثون عنك يا عبدالمولى يبحثون عنك، أتسمع.؟ شرقا وغربا وشمالا وجنوبا.

كلست قدماه.. فأعياه التجوال.. ترامى إلى سمعه أصوات بعيدة انهم قد جاءوا.. تذكر أهله.. تذكر الفتاة الجميلة، ويجري معها إلى البحر ويبنيان بيتا.. نعم بيتا، كلن ليس من رمل.. وغمغم بسعادة إذن انهم آتون.. سار باتجاه السيارة واخذ يجر نفسه بتثاقل واعياء شديدين، حتى وصل بجوار السيارة وتهاوى عنده.

اخذ يدق .. اخذ يدق .. ولكن ذلك الذي كان معه لم يعد له وجود..

أين أنت أين أنت..؟ افتح لي أين غناؤك الطفولي.؟ أين نشوتك؟. اين سرورك.؟ اين جنونك.؟ أنقذني.؟

لم يكن مع عبد المولى أحد.. كان صوته يضيع في جوف الصحراء دون ان يكون له صدى.. بحث عبدالمولى عن المجهول.. لم يجده، "ذاب .. هكذا قال".

– فتح عبدالمولى باب السيارة تناول الزمزمية، فوجد ماءها مدلوقا في قاع السيارة وكان البسكويت هشيما..

تراخى عبدالمولى على المقعد.. وكان ضجيج محرك الطائرة يقترب ولكن عبدالمولى لم يسمع آنئذ شيئا.

*****

الخطيب

وقف الخطيب صـــامتا؟. كصـــمت المنبر الذي يعتليه.؟ ثم تمتم بكلمات غير مسموعة اني لا أستطيع ان اتحدث اليكم.. الله يقف حائلا بيني وبينكم.

سـادت فترة صـمت طويلة.. الآذان مسـترقة السـمع والعيون تحاول الاسـتفسـار.. لحظات الانتظار ساعات محرقة.

ابتدأت دمدمات وهمهمات.. تحاول سـحق الصـمت، ثم ضـرب الخطيب يده على سطح المنبر، انطلق صوت الضربة كخشخشة عبر اسلاك ناقل الصوت ليصل آذانهم؟. فساد صمت جديد لكنه ذو طعم مغاير..

وأحس الناس ان امرا خطيرا سيتحدث عنه خطيبهم المفوه.

الجماهير وكأن على رؤوســـها الطير وقف.. وبتعاطف جماعي خيم على الموقف ذلك النوع من الصمت الذي تكون الكلمة فيه تساوي رقبة.

ثم تنحنح الخطيب.

همس احد الموجودين بعد ان حطم جدار الصـمت.. ها انه يسـتعد ثم اجابه جاره اتخمن ماذا سيقول؟.

قال الاول أهناك مؤامرات جديدة..

الاخر يجيب وهو يهز رأسه.. بكل تأكيد بكل تأكيد..

فهتف الاول.. تسقط المؤامرات والمتآمرون.

انطلقت صـرخات مدوية من حناجر الجماهير مرددة تسـقط المؤامرات والمتآمرون، هتف الاول تسقط الرجعية والامبريالية.. عاش كفاح الشعب.. فدائية.. فدائية..

رددت الجماهير الهتافات بحماس واندفاع..

ابتسم الخطيب بسمة واهنة ساخرة.. كأنه يريد ان يقول لهم هتافاتكم ضجيج صرخنا وهتفنا.. بحت الحناجر وماذا تم.؟

خطبت فيكم حتى اصـبحت خطيبكم المفوه.. ثم ماذا؟ اسـألوا انفسكم ثم طرق على منبره ثلاث طلاقات.. وســـاد الصـــمت.. وكأن الطرقات الســـنة من اللهب تلتهم كل الصرخات الهائجة او تلعقها.

عدل الخطيب ومن وقفته، وحدث نفسه، قد تكون وقفتك الاخيرة مع جماهير احبتك وأحبتها انه فراق صعب اليس كذلك.

ثم استعاد بعضا من شجاعته ليحدثهم.

اول كلمة.. كان يود ان ينظقها.. كيف نطقها؟ وكيف ضاعت الاخرى في جوفه؟.. وخاطب نفســه.. انت بالنســبة لهم زعيم وبطل.. ولا تقوى على قهر نفســك.. مأســاه.. مأساه.

وهز رأســـــه هزات متتالية بحركات لا ارادية فدوى هتاف الجماهير عاليا.. عاش الخطيب.. عاش الخطيب.. احس ان تلك موجهة من عدو لتطعنه في صـــــميم كبريائه وشـــجاعته.. احقا انت خطيب الجماهير ومحبوبها.. اذت تكلم ثم نطق "اخوا..." وابتلع نصـف الكلمة الآخر في حلقه.. قاطعته الجماهير بهتاف مجلجل!:- الصـراحة والصـدق سـبيل الحق.. الموت ارخص ثمن.. الموت لاعداء الثورة وصـــرخ شـــخص مرفوع على

الاكتاف قل ما تشـــاء ونحن وراءك.. اخذ الخطيب يبحث عن كلمات ملائمة تعبر عما في نفسه بلا جدوى اخواني: قالها بشدة وحزم.

وانصت الجيمع ثم كرر اخواني ابناء هذا الشعب..

ووصلت اليه هتافات عاش الشعب وعاشت الثورة..

"اخواني ما جئت هنا كي اثير حماسكم لتهتفوا بشعارات.. جئت هنا كي اقول الثورة في خطر..

وســـرت دمدمات بين الجماهير الثورة في خطر.. وعلت من جديد الهتافات الموت لاعداء الثورة نحن فداء الثورة.. اخواني جئت كي اقول ان الثورة في خطر، اســتمعوا ولا تهتفوا..

وجاء صراخ مزمجر وماذا بعد.؟

استجمع الخطيب شجاعته– وهو الذي لا يقاطع في خطبة ابدا– قال:– وماذا بعدٌ؟ الخصــه لكم بكلمات قليلة.. ان الثورة في خطر، الخطر يكمن في هتافاتكم وشـعاراتكم.. اني العن شعاراتكم وهتافكم.. ان الثورة الحقيقة ان نبحث ايها الاخوة عن المعنى الحقيقي للشعارات.. ايها الاخوة اني العن هتافاتكم وشعاراتكم.. وعلى الارض وثوراها السلام.

وانســـحب الخطيب من على منبره فور قوله كلمة الســـلام.. الجماهير صـــدمت واصـــابها الوجوم.. وبعد ثوان عادت الى بعضـــهم قدرة لتفســـير الامور ماذا يعني العن شعاراتكم وهتافاتكم هل يلعننا بطريقة ما؟!

حاول البعض ان يفســـر واخذ البعض يتســـاءل:– جاء ليخطب، وهتفنا له وللثورة، واكد انه ســـيتكلم عن الخطر الذي يهدد الثورة، لكنه لم يقل ســـوى اني العن هتافاتكم وشعاراتكم.

اخذ الموقف تفسيرات عدة، البعض اصر على ان يحطم رأس الخطيب الذي اهان الجماهير ولعنها، وآخرون تمعذورا له.

وســـار الخطيب ومدفع رشـــاش على كتفه الى قاعدة رقم (14) في اغوار الاردن والبدلة الترابية وقبعته تحت ابطه وكرر اللعنة ثم اللعنة..

*****

مات الشوق

حين استدعاني الحاكم العسكري للتحقيق، سألني وسألني.. قلت له: مات الشوق انخرطت في بكاء هستيري، ساد الصمت، لم اعد اسمع سوى نشيجي المتصل.

كان الحاكم العسكري يدخن لفافة وهو لا يرفع بصره عني، والمختار بجواري يتمتم بكلمات لم استخرجعها جميعا، ولكنه ظل يردد: خسارة خسارة يا ابا حسين.

مات الشوق:

كانت حبيبتي ورده، عيناها بلون الفستق وشفاهها جميلة وخداها كالتفاح الشامي، ها قد مرت السنون وعلا الشيب الرأس، وانا هناك اعيد ذلك الجانب القصي من الوطن.

كيف افترقنا، ذلك كان، بحثت عنهم ام حسين وحسين وروضى وسامية.. والأن اين هم.؟

الرملة مدينة قديمة، ويحمل المجاهدون بنادقهم القديمة يقاومون وينتظرون فرج الله والجيوش العربية التي تتقدم وتحتل مواقع ثم تنسحب، ونخوض معركة كبيرة يستشهد العديد من الاصدقاء، تأتيني رصاصات تمزق الفخذ ويشتد النزيف، يسندني ابو

سالم، يحاول اسعافي يقترب الاعداء يتكاثف الرصاص ويستمر النزيف:

– يا ابا سالم انج بنفسك قبل ان يقتلوك انا لا فائدة مني.

مات الشوق. مات الشوق..

– ماذا تفعل هنا في رام الله ها قل لي تتصل بالمخربين تنظم خلية تخريب في الرملة ها قل لي.

يباغتني كلامه ولا يباغتني، فانطلق ضاحكا ضحكة طويلة:

لقاء معه:

عندما قابلته في حجرته الضيقة قلت له:

– نا من العرابة المدفونة .

مركز البلينا..

محافظة سوهاج..

فتطاير الشـــرر من العينين الجاحظتين.. وهب واقفا من جلســـته فاســـقط البراد الصاجي فوق الارض، وتهشمت الاكواب الزجاجية.. ثم صرخ بأعلى صوته وهو يدور داخل الحجرة الضيقة كثور الساقية المعكوف العينين.

استدراك (2):

عندما سقط ابي فوق الارض.. تجمعت القرية كلها حوله.. يراقبون انبثاق الدم من صدره.. دون ان يقدروا على فعل شيء.. وظلوا واقفين في صمت كصمت التماثيل التي تملأ القرية منذ آلاف السنين.. حتى جاءت النسوة اللائي يجدن فن الصراخ فامتلأ الجو بالبكاء والعويل.. الا ان امي جاءت مهرولة وهي تصـــرخ في كل الوجوه بأن تكف عن البكاء.. والنواح.. واطاعت الافواه والعيون ما امرت به.. وباشارة من اصبعها الرفيع الى رجلين من الرجال الواقفين حول الجثة.. حملوا الجثة الى دارها.. ثم وضـــعتها في صـــندوقها الذي تحبىء فيه اشـــيائها الخاصـــة.. واغلقت عليها الغطاء.. ثم جلســـت القرفصاء بجوارها ساندة خدها فوق يديها الرفيعتين.

ما قبل اللقاء:

قالت امي.. في المدن البعيدة.. ستقابل ناسا غرباء.. ناسا لم تر مثلهم من قبل فحذار ان تنسى امك يا ولدي.. وقالت لي حبيبتي.. البلد في ذهول.. ما زالت غير مصدقة ما وقع من سنين.. وكل اهلها في انتظار ما ينتشلها من هذا البحر الملعون.. واخذت امي تنحت صورته في عقلي حتى لا انسان ابدا.. وعندما رفضت.. في قوة صفعتني بكفها.. ثم امسكت بي من كتف الجلباب واخذت تهزني بقوة

تكاد ان تخلعه من يديها وهي تهلوس بكلمات لم افهمها.. ثم غرقت امي في بركة هلامية من البكاء المتشنج..

كنت اعرف عنوانه.. واحفظ صورته.. وعندما وصلت اليه في حجرته الضيقة.. وفتح لي الباب.. نظرت اليه محملقا في وجهه جيدا وانا اراجع انطباق صورته المترسة في عقلي وعلى وجهه البارز امام وجهي.. قد حانت الفرصة الذهبية التي كنت انتظرها منذ ان كنت طفلا صغيرا..

قال لي : اهلا وسهلا.. اتفضل..

وراح يشعل وابور الجاز ويعد الشاي في براده الصاجي.. واكوابه الزجاجية الخضراء.

قال لي: اهلا وسهلا .. مرحب..

وراح يفرج شاربه بأصابعه الغليظة المقوسة ويرفع من اطرافه الى ان جعله كنصل السكين القابع في صدري.. وسألني: من أي بلدة انت.؟

السقوط..

راح المسكين يصرخ في جنون..

– ابعد كل هذه السنين تجيء الي وتعرفني.. وتجالسني في غرفتي.!!

ابعد كل هذا السفر الطويل والمدن المجهولة تصل الي .!!

قلت له: امي اوصـــتني ان اعطيك هديتها هذه.. فســقط الجبل تحت اقدامي وهو يتلوى في تشـــنجات مميتة.. والزبد الابيض المائل للاصـــفرار يطفو فوق ســـطح فمه المفغور في قســوة.. وعلامات الالم تمزق جســده بقوة كل الســكاكين التي تملأ حجرتي الواسـعة.. وازدادت، تحت قدمي تقلصـاته الدودية .. وانا في شـموخ اراقب عروق وجهه التي ادمت شـــفتيه.. وبأظافر اصـــابعه البارزة حفر جروب العذاب والالم في وجهه الاصفر البارز العظام.

رحلة آلام طويلة وقاســـية قام بها بمرده دون ان يجد من يســـتقبله داخل محطة الوصـول.. انا لم المسـه.. اطلاقا.. ولم افعل معه شـيئا.. فقط اغلقت الباب في هدوء.. هدوء.. ووليت الى محطتي استقل منها قطاري الذي تمنيت الا اجدنه بالمحطة.

ها قد فتحوا الاسوار واصبحت الارض واحدة ما هو تحت يد العدو وما ليس تحت يده، احمل بعض الهدايا وثقل التمزق والشـــجن والشـــوق، ها ان حســـينا اصـــبح رجلا وسامية اصبحت عروسا

اشـــتري لهم بعض الهدايا واســـافر الى رام الله لأبحث عنهم، قال لي بعض الاصـــدقاء بامكانك هناك ان تعرف بيتهم بســـــهولة، اذهب الى ابيت، في فؤادي تتراقص اجنحة السعادة، ستراني ام حسين ستسمر من هول المفاجأة ثم آخذها بالحضن فتبكي وتبكي من الفرحة، تطفر من عيني دموع، اعانقها تعانقني ثم يأتي الابناء فأعانقهم.

اقف امام الباب، هل اطرقه.؟ لا.. ستكون الصدمة شديدة على ام حسين والاولاد الافضل ان يخبرهم احد بمقدمي.

لا.. ها انا اقف امام الباب، اطرق طرقتين خفيفتين ثم اتراجع، اطرق ثانية وانظر اتصنت فلا اسمع صوتا..

اطرق بشـــدة، اســـمع خطوات واهنة تجر قدميها جرا، يفتح الباب وتســـأل عجوز: من.؟

– انا ابو حسين..

– من.؟

– ابو حسين..؟ ماذا تريد.؟

– اين ام حسين.. وحسين وسامية.؟

ترحب المرأة بي، تفضل هذا بيتك اشرب الشاي.

اتفحص البيت بسكونه، سقيفتين لا كراسي لا اثاث..

– ولكن اين الاسرة يا حاجه.

تغمغم العجوز بأسى:

– لقد تركو..

– كيف.؟

انخرط في بكاء متصل مات الشوق.. مات الشوق..

– اين تركوا.؟

تطيب العجوز خاطري وتحاول تهدئتي..

– تعرف ان ولدك حسين يدرس الهندسة في القاهرة، وأما سامية فتعمل في الكويت ولم يبق هنا سوى ام حسين، لذلك نزحت مع النازحين لتلتقي بأبنائها هناك.

تلتقي بهم.. تلتقي بهم.. وانا كيف التقي بهم.. كيف.؟

اجبني ما الذي يأتي بك من الرملة الى رام الله.؟

هذا الحاكم العسكري، لا يجيد سوى هذا السؤال وانا لا احير له جوابا.

يتدخل المختار يحاول ان يشرح له:

– تعرف يا خواجا انه منذ عام 1948م كان هناك عائلات وكان باقيها هنا، العائلة الواحدة مقسمومة نصفين تعرف هذا بكل

تأكيد، ابو حسين مكان هناك عندنا. مات ولد من الاولاد ولم يره، اولاده شبوا ولم يلتق بهم، والان عد ان تم للارض التقاؤها جاء البشر ليلتقوا ايضا. جاء ابو حسين ليرى اهله، صحيح انهم نزحوا ولكنه يأتي هنا دوما ولدينا مثل يا خواجا يقول "من رائحة الحبايب".

الحاكم العسكري لا يقتنع، يتحرك من مكانه بعصبية اجبني ما الذي يأتي بك من الرملة الى رام الله.؟

(يسألني ما الذي يأتي بي اليست هذه الارض ارضنا وقد فتحوا الحدود لنا لنعبرها عبر الالم والموت والصفاقة)..

ما الذي يأتي بي الى هنا نفس السؤال الذي سألني اياه شرطي على بوابة (مندلبوم) منذ سنوات، ما الذي يأتي بك الى هنا ايها العجوز.!!

لا اجيبه.. تطفر الدموع من عيني واستجيب للشجن واللوعة والالم، اهز رأسي فأرى الابناء على جانب وآباءهم على الجانب الآخر.! ابحث عن ابنائي وزوجي فأراهم، يخفق قلبي، ارى ام حســـين خلف الحواجز تتلاقى العيون تقول لابني: هذا ابوك ينظر الولد باسـتغراب ويتسـاءل ابي .. ابي.! واسـتاءل هل هناك آباء لا يظلون بجوار ابنائهم غير الفلسطينيين.

تلتقي اعيننا ولا نجرؤ على الحديث، ســنوات تمر وطفلي يكبر، نلتقي هنا كل عام لساعات، الطفل يكبر وافقد واحدا من انبائي ونلتقي كل عام عبر الشوق والالم والامل.

مات الشوق..

يا حاكم المدينة آتي لأزرع الارض بالشــوق، والشــوق مســامير تتغرز في قلبي، جراحها لا تندمل وهنا رائحة الحبايب يا خواجا، وهل غير رائحة الحبايب تطفىء الشوق.

– انت تثير الشــبهات وفي عمر رجل مثل تجاوز الخمســين عليك ان تبحث عن الراحة، اسـرتك غير موجودة فما فائدة مجيئك الى هنا، انت تثير اشـكوك، سـنتركك هذه المرة ولكن لا تعد ثانية نرحم مرة ولا نرحم اخرى.

(ما فائدة مجيئي لقد مات الشــوق لحظة ان جئت هنا ولم اجدهم، مات الشــوق، اعرف ان اسرتي غير موجودة لكنني آتي لأبحث عن الراحة.. آتي لأبحث عن الراحة).

– اغرب عن وجهي لا ترني وجهك بعد الآن.. اخرج فورا.

يقول المختار لي: سأفر فورا لئلا يؤذوك، فأهز رأسي بالنفي..

ويسألني: ماذا تريد ان تصنع فلا اجيبه.

يسـألني ثانية فلا ارد عليه يتمتم المختار: يا خسـارة فقد الرجل عقله يودي بنفسـه الى مصـيبة. ابتعد عن المختار يصـرخ بي انصـحك بأن تسـافر فورا والا تعود ثانية، لن اتوسط لك مرة اخرى.

ابتسمت واخذت اتجول في شوارع المجينة وازقتها، غربت الشمس وعدت ثانية الى البيت طرقت الباب فتحت العجوز لي، قالت ان المختار جاءها وقد حذرها من ان تستضيفني ولكنها لا تفهم معنى لكلامه لأن هذا بيتي ومن حقي ان اعود اليه.

لم تكمل العجوز حديثها معي حتى سمعنا طرقات عنيفة على الباب فتحت العجوز لهم كانت قوة من جيش الدفاع اقتادوني معهم ولمحت المختار وهو يهز رأسـه آسـفا او متحسرا.

نمت ليلة في سـجن رام الله ولم يحقق احد معي، اخذوني للحاكم العسـكري صـباح اليوم التالي، وذلك على غير عادتهم لأنهم لا يأخذون مساجينهم الى الحاكم العسكري.

حينما رآني قال بعصبية:

– تظن انني امزح يا ابن.. وشتمني بكلمات بذيئة.

ولم اشعر بوقع الصفعة التي تلقيتها لأنني ترنحت ووقعت ارضا وداس على وجهي بقدمه ثم ركلني ركلات متتالية.. بعد ذلك لم اع شيئا لما جرى لي.

في مسـاء اليوم اسـتدعاني المحقق ووجه لي تهمة تنظيم خلايا للفدائيين فضـحكت وكان المحقق يشتم.

*****

الثلج ينبت خنجرا

ادق في الارض وتدا.. الريح عاتية.. النائمون يســـقطون.. يتســـرب الماء الى الاعماق.. الاجساد الطويلة تتململ..

ماذا اصنع لهم.؟ احبائي فلتناموا.

يفتحون اعينهم نصـف فتحه.. يغلقونها وينامون. يخيل الي ان الاصـوات التي فوق الخيمة.. كأنها وقع حوافر.. مهزومة.. كليلة لا بل نشـــطة تغذ الخطى.. فوقها فارس عتيق.

– ناموا يا احبائي..!

ونشـرت بطانيتها السـوداء فوقهم.. تمددت تبحلق في عتمة الكيان المحصـور بين (الشادر) والاوتاد والاعمدة..

– ها .. هل نمت يا ابا محمود.؟

اصـــمت.. لا اتكلم.. من اعاق صـــدري المثقل بســـنوات حروب طويلة.. والمثقل بسجائر (الهيشى) التي اتقن لفهاه.. تخرج قحة، من صدري تخرج قحة..

– ها أنك مستيقظ.!!

– .....

– ابناء ابنك يموتون من البرد.؟!

–.....

الوذ بالصمت.. الاعمار بيد الله.. حينما حملت جثة ابني على كتفي الواهنتين.. لا حول ولا قوة الا بالله.. القنابل تتساقط من كل ناحية وزئير صوت المدافع.. بم..بم..بم.. الاطفال يتكومون بجانبهم ابيهم.. الطفل المدلل في حضـــن جده يغفو.. اداعبه اقبله لا تخف.. بعد ســاعات كانت الطلقات والمدافع بالنســبة للأطفال شــيء عادي.. الاطفال يريدون ان يأكلوا.. احاول ان اخرج.. ابني يمنعني.. ويخرج ليحضر لأبنائه طعاما..

– الرصاص الطائش هنا وهناك.. لا نريد أكلا.. عد يا بني..

اقول لها المكتبوب على الجبين لا بد ان تراه العين.

ام الاطفال كانت تزور والدها العليل..

– امي .. امي.. أين امي.؟

فجأة صرخ المدلل الصغير.. احسست لحظتها بطعنات قاتلة تمزق صدري..

– ابعد عني .. قلت:

زوجتي نظرت الي وتمتمت اسم الله عليك وبسملت وحوفلت..

جدي ما بك.؟

الصـمت ارتمى بين احضـانه.. احسـسـت لحظتها ان ملثما يحمل خنجرا مدببا قد امسك بعنقي واخذ يذبحني..

الطفل يبكي.. وانا اشاهد دمي المسفوح على يد الملثم المجهول..

– غاب يا ابا محمود ابنك.!!

كل غائب وحجته معه.. وماذا لو تأخر.؟ لا بد ان يتحين فرصـــة للعودة.. الماء يعسعس بين الاقدام الطرية.. شهر شباط يزور عمان.. يدي تمسح قطرات ماء انحدرت من جبين السطح الواقي؟!

فتحت الشــق.. ابص على علب الصــفيح الكبيرة المتراصــة امامي.. الريح قوية وعيون السماء تندلق المياه.. صنابير السماء مفتوحة على آخرها..

. لا فائدة من اعتدال الجو..

– ألم تنم بعد يا ابا محمود؟!

. نمت بما فيه الكفاية.. نامي انت.. اتبكين.. لماذا.؟

تبكي وتبكي.. وانا اصــيح في وجهها كفي.. لئلا يســتيقظ الاطفال بلا ام ولا اب وتبكي وتبكي..

– السماء تبكي معنا يا ابا محمود..

اهز رأسي..

– ابا محمود السماء تبكي معنا اليس كذلك.؟

– اسكتي السماء لا تبكي مع احد، ولا على احد.. هي تراقب..

– السماء تبكي على محمود وزوجته يا ابا محمود..

– قلت لك اسكتي.. ليس لنا الا الصبر..

– السماء تبكي من اجل الاطفال اليتامى..

– الاطفال اليتامى لهم الله.

حينما حملت محمود على كتفي وسـرت لأواري جسـده التراب، لم يكن يخطر في بالي لحظة ان هاتين الكتفين سوف تحملان جثة محمود.. مع غيره مات.. بكينا بسرعة خلفت دموع .. مرت الايام.. والمدافع تزأر والناس قد اعتادوا هذا النوع الغريب من قوع طبول الحزن.. واصبحت علامات الحزن تغمر كل الوجوه.

من مات.؟ سؤال لا قيمة له، حينما يصبح السؤال الاهم من عاش.؟

– مات ابو فلان، وفلانه يا ابا محمود.. سجنو الوفا والوفا..

– لا تخافي لن يأخذوا الشيوخ.

وأخذوا مؤذن الجامع، واخذوا عجوز لا يسـمع اوسـعوه ضـربا لأنه لم يرد عليهم.. (لمو) حتى سعد (الاهبل) من الحارة..

الم اقل لك يا ام محمود انهم لن يأخذوا الشـيوخ، ها انهم قد تركوني.. لكن الارض ما زالت تغلي.. ايام تصـــحو.. وايام تفور.. البرد يشـــتد والاطفال يحتاجون الى غذاء وكساء.

يأكل الاطفال.. لايعرفون من اين تأتي اللقمة وكيف.؟! لكنهم يأكلون.. الصـــغير سأل اباه حينما خرج هل ستحضر لفي كلاشنكوف.؟

ابوه ابتسم وقلبه، لم يكن يدرك انها قنبلة الوداع.

الاطفال يتساءلون هل ابوهم قرر الا يعود.؟! وهل يحمل كلاشنكوفا.؟!

يتشـاجرون فيما بينهم.. يوزعون اسـلحة على انفسـهم.. كل منهم له لعبته واسـمه الحركي.. ابو علي.. وابو نضال.. والوحش.

– الجو يا ابا محمود به تباشير ثلجيه.

اغمغم.. ثلج وخيمة.. حينما خرجنا في النزوح الاول اثلجت الدنيا.. وقلنا يومها– تذكرين ذلك– انه غضب وحينما نزحنا عام 1967 في المرة الثانية اثلجت ايضا. خيامنا انزلقت من مواقعها.. قلنا هو غضب.. واليوم.. ماذا نقول.. اغضب ايضا.؟

– اسمعي لو استمر البرد قليلا سيكون وسادة ملائمة لاضطجاع الثلج..

– الن تنام يا ابا محمود.؟

هذا الصـــوت اللعين الذي يجبرني على الاســـتماع اليه لا يتركني اخلد للنوم.. قد تقولين اني مجنون..

– بعد الشر عنك.

– حقا اقول لك قد تظنينني مجنونا..

– قل لا تخشى شيئا..

– هل صحيح ان محمود وزوجته قد ماتا.؟

– .....

– لم لا تردين.. اني لا اصدق.؟

– .....

– تلتزمين اصمت.. قلت لك قد تظنينني مجنونا.

وانخرطـت في البكـاء.. واســـتمع الى تنفس الاطفـال وزفراتهم وكـأنهـا تنبع من اعماقي.. لا تبكي لئلا توقظي الاطفال.

تناولت جرعة ماء شربتها من اناء فخاري في ركن الخيمة.

حاولت ان استسلم للنعاس.. طاردتني صور شتى ماذا لو مت وخلفي هؤلاء الصبية..؟! طردت الفكرة من ذهني لكنها عادت الي بإلحاح.. لست ادري لعل حوادث السماء لها تأثيرها على.. رصاصات دوت..

ماذا حصل.؟

توت.. توت.. ابواق السيارات تنفخ.. وفحيح الناس يتعالى وهم يتراكضون.. طلقات رصاص تدوي.. رصاص هناك.. المحلات تقفل ابوبها والكل يحاول ان يجد مكانا يختبيء فيه من رصاص غبي يتقذف من كل جانب. بجانبي سقط فتى.. وامرأه حملوها الى المستشفى..

تأخرت واقلقتنا يا ابا محمود.

احمدي الله على السلامة يا ام محمود..

كان من الممكن ان اموت فطيسا في سوق عمان.. وها هي فكرة الموت تعود الي بالحاح.

منطقتنا مهددة بهجوم.. هكذا سرت الاشاعة منذ اسبوع وقال البعض ان قصفا مدفعيا سوف يصيبها..

ام محمود طلبت ان نلجأ الى منطقة اخرى من اجل الاولاد.. ومن اجلهم قلت لها ان نتحرك .. لن نترك موقعا نحن فيه ابدا..

العائلات التي غادرت المنطقة عادت مرة اخرى... كانت كذبا تلك الاشاعة الا ان جو الاضطراب والقلق يسود كل عمان وحواليها.. بين السلطة المقاموة الثقة غير متوفرة.. والوجدان نقيضان.. اصبحت القضية فدائي او لا فدائي وبالنسبة للفدائي اقول لأم محمود– ليس من طريق لحريته الا بتحرير ارادته.

فكرة الموت طاردتني وطاردتها.. حتى غلبني النعاس.. وغلب زوجتي ايضا.. حتى اننا لم نستيقظ لصلاة الفجر.

في الصـــباح اطل الاطفال من الشـــق.. هللوا وفرحوا.. الثلج.. الثلج كرات الثلج تتدحرج.. يتســـابقون.. كرة ثلجية ضـــخمة يصـــنعون منها تمثالا كبيرا.. تمثال لرجل مسلح.. الطفل يقول هوذا الفدائي

والثلج الابيض يغطي الارض.. تنـادي على الاطفـال.. ادخلوا من البرد يلهون ويضحكون.. دخلوا ليأكلوا..

صـــوت طلقات نارية تأتي.. النار من فوق الرؤوس وكأنها تحاول اذابة الثلج.. الاطفال ينظرون الي.. ليس في نظراتهم خوف ولا فزع. يبتهجون لصوت الرصاص ماذا يعني لهم.. لعبة مسـلية.. لكنهم تربوا على صـوته، وعلى معانقة السـلاح نشـأوا.. عند جارنا ذهبنا. في ملجأ حفره وأبناؤه تكومنا كالفســيخ في برميله الخشــبي.. بين الفســيخ ادخن اخقنقهم، وليس بيدي غير ذلك.

الرصاص صوته يبتعد.. لكن اصوات نساء تصرخ.. تولول.. امرأة تنادي يا ويلكم زوجي.. هو ابو العيال ومن لهم بعده؟!

اصوات النساء يولولن. النساء يولولن..

يصـلنا الجنود.. فينادون اخرجوا.. ايها الرجال.. اخرجوا.. وشـتموا ايها الرجال في زي النساء اخرجوا.. وخرجنا.

شـــيبا كنا.. ثم اطفالا.. اخرجوهم اول الامر ثم تركوا بعضـــهم في عربات نقل عسكرية شحنونا.. وبمعسكر فسيح الاطراف تركونا.. نفترض الارض بغطائها الابيض الناصع.

الاوصال تتجمد.. الدورة الدموية يختل توازنها.. اصابعي احركها افتح قبضة يدي ثم اقفلها.. افرك يدي..؟!

العراء والثلج.. والبرد والجوع.. والشيخوخة.. هي انا ومثلي هنا كثيرون. وصرخت في وجوههم.

– الا تعرفون الرحمة تتركونا في البرد بين الثلج..

اخرس...

ويفرقع بسوط في يده.

– ارحزنا شيخوختنا واطفالنا..

– ارحموا.. ارحموا..

وتعلوا ضحكات جندي لا يعرف حتى ما اسمه.. وانهال علي ضربا بالسوط.. ثم ركلا بالحذاء.

لم ادر ماذا جرى لي بعد ان هجم على ذلك الجندي..

كنت قد عانقت الثلج ورحت في نومة لا ادري طولها.. وكان شريط بني يلتصق في جانب فمي ويمتد الى ذقني. وتداعت الى ذهني صور الاطفال..

ابني وزوجته ام محمود شبح الموت يعود ثانية يدوس هامتي..

يا ام محمود بكاء السماء يبذر في الارض ثلجا.. والثلج ينبت خنجرا.. فنفضت عن لحيتي الثلج.. وكانت قدماي قد جمدتا فلم اقو على تحريكها..

*****

الجيزاوي يهديني رشاشا

مهداة الى يوسف الصديق الشقيق

كنت طفلا صغيرا، وكان الجيزاوي احد ابناء قريتنا، شاب اسمر البشرة طويل عريض المنكبين، وهذه سمات لم تكن تخصه وحده، وكان يدير المقهى الرئيسي في القرية.

اخرج من بيتنا لأتسلل الى ذلك المقهى فانصت باستغراب وخشوع الى ذلك الصندوق الخشبي والذي يقوم الجيزاوي بتشغيله بحركة خفيفة فاسمه منه اغاني وموسيقى عذبه، واشتغرب لتلك الاصوات التي تنطلق منه احيانا بلغتنا واحيانا بركنة عجيبة.

كان الجيزاوي رقيقا، حينما يراني يأخذني بيدي ويقول لي عبارة حفظتها عن ظهر قلب "لسه بدري القهاوي يا يوسف".

ولم اكن استلطف الرجال الكثيرين بعقلهم وحطاتهم البيضاء وهم يلعبون الورق والنرد ويكركرون بنلاجيلاتهم الشامية ذات الخراطيم الحمراء المزوقة فانظر اليهم بعين الحذر هل منهم احد انتبه الي ومن منهم سيخبر ابي بعد عودته.

رشفت كوب الشاي بالنعناع الذي احضره لي الجيزاوي، واقتربت من ذلك الجهاز اتفرج عليه، ادار الجيزاوي ظهره، كان الصندوق الخشبي يصدر اصواتا منتظمة مثل الجرس بعدها جاء

صوت رجل يتحدث ثم موسيقى وعاد صوته مرة اخرى، فجأة كفت اصوات النارجيلات عن الكركرة وامتنع لاعبو النرد عن رمي الزهر وهمد ذلك الصخب المتمازج ليسود صمت وتتجه ابصار الرجال جميعا نحوي، نحوي ام نحو الجهاز لم اكن ادري، كان

المذيع يتحدث ولم افهم شيئا مما يقول، وددت لو اسمع اغنية او موسيقى بدلا من صوته فممدت يدي الى مفتاح الجهاز وحركته ولم اعد اسمع صوت الرجل، هب الرجال مرة واحدة وهم يصرخون بي، الاخبار.. الاخبار، لم افهم شيئا ورأيت واحدا منهم يقترب فارتعدت من الخوف فعدل صوت ذلك الصندوق ليعيد للمذيع صوته وقرصني من اذني وقال لي (اذهب الى بيتكم هذا مكان للرجال سأخبر اباك) خرجت باكيا وتساءلت في ذهني: هل هناك اماكن للرجال واخرى لغيرهم، وتظاهرت بالعودة الى المنزل، بينما وقفت الى جوار حائط المقهى اتنصت.

الاخبار ماذا تعني.

طرد احد رواد المقهى طاولة النرد امامه بعصبية وقال:

– هيا ايها الرجال.

انسل الرجال من المقهى واخذ الجيزاوي يجمع الكراسي وسألته: لماذا انفضوا.

لم يرد علي، كان يتمتم "اليهود اولاد الكلب عملوها"

اليهود، اسمع عنهم ولكن ماذا يريدون منا لماذا يتلفون على رجالنا جلساتهم المريحة، مان الجيزاوي قد انهى ترتيب المقهى واخرج بندقية طويلة واقفل المقهى ومشى.

قلت له: خذني معك يا عم جيزاوي.

ربت الجيزاوي على كتفي وقال (ستحاربهم يا بني) قبلني ثم مضى.

الآن ليس من حقي ان انسى بعد عشرين سنة كل ذكريات الطفولة، ومن حقي كذلك ان افرسها كما افهم.

الاخبار .. اليهود.. والعم جيزاوي وبندقيته والرجال الذين نهضوا من المقهى يتدافعون لحمل اسلحتهم.

في ذلك اليوم اذكر انني كلبت من الجيزاوي ان يحضر لي حلوى، وسألته اذا كان سيرى والدي.

ولم اتذكر كم كانت غيبة والدي عنا ففي كل يوم اسأل عنه يقولون انه مسافر وسيعود، والان ايضا ادرك: لماذا كان كل الرجال يعاملونني بلطف وانت يا جيزاوي يرحمك الله.

سنوات مريرة كبرت فيها، قبل ان يعود ابي لتحتفل به قريتنا احتفالا مهيبا واذكر الآن مقهى الجيزاوي وهو مزين باغصان الاشجار والورود، شعرت بومها كأننا في عرس عقيقي، وبدأت ادرك معاني كثيرة.

الاخبار.. اليهود.. الجيزاوي.. البندقية.

في يوم عودة والدي سأله الناس عن اسماء كثيرة من المجاهدين، بعضهم خرج من المعتقلات والعبض الاخر مات تحت التعذيب وانخرض والدي في بكاء هستيري.

والرجال في القرية يقولون له: يا ابا عمر السجن للرجال وانت شرفت بالسجن.

كان يبكي ولأول مرة في حياتي اصدق بأن الآباء يمكن ان يكونوا مثلنا، كانت امي تحدثني عن ابي اثناء غيابه، وعن بطولاته في محاربة الانجليز واليهود وكانت صورة والدي في ذهني اشبه

بالصورة التي رسمتها جدتي في حكاياتها عن ابي زيد الهلالي ولكن ها هو يبكي.

– وماذا يبكيك يا ابا

– يبكيني الموت والالم والوكن.

وروى لي والدي ما لاقاه وصحبه في السجون من تعذيب، ووالدي الذي اسر اثر معركة اصيب فيها بساقه لم ترحمه اصابته من التعذيب، رفقا له استشهدوا نحت التعذيب وآخرون خرجوا بعاهات ويسأل الي عن عدد من اصدقائه غائبين فينظرون في عيون بعضهم ويهز ابي رأسه: استشهدوا، استشهدوا، استشهدوا قولوا ذلك قولوا ذلك وينخرط في بكاء طويل واتساءل هل الابطال يبكون.

كان الجيزاوي امهر رجال قريتنا في الرماية، وعند اول هجوم تقوم به قريتنا او تصده كانوا يبحثون عنه ويقولون المصري احضروا المصري، فهو من الجيزه التي طالما حدثني انه يتحدر في اصله منها.

توالت الهجمات على قريتنا، وكنت افتقد غياب ابي الذي اصبح لا يأتي البيت الا زائرا بعد المغيب، لم اكن اسأله، كنت ارى مسدسه ذلك الذي لا يفارقه، بدأت والاصحاب من جيلي ندرك معنى

اختفاء الآباء، ولم نعد نسأل عن غيبتهم وباتت مسألة الرصاص والموت لا تحتاج منا الى استفسار او مناقشة، صحيح اننا كنا اطفالا ولكننا تعودنا الآلام التي تنضج الاطفال مبكرا في بلادنا، وكثيرا ما فكرنا ان نشارك الكبار ما يصنعون.

يومها جئت امي باكيا ولم تسألني لماذا ابكي، تصورت ان مزيدا من البكاء سوف يتيح لي جانبا من اهتمام امي، اراها وهي ترقبني بصمت وابتدأت اكفكف دموعي ثم صمت تماما.

قالت بحزم: كمن تبكي تشاجرت مع الاولاد الا تعرفون كيف تقاتلون اليهود بدلا من ان تتقاتلوا مع بعضكم.

لم اجرؤ ان احدثها عن ذلك الشقي الكبير الذي سلب نقودي ونقود ابن الجيران وكيف ضربناه، وضربنا، وولى هاربا وانتسللت على التو وهي مشغولة بأوضاع شقيقي وكنت اطرق البوابة ةتناهي الى مسمعي صوتها: الى اين يا يوسف.؟

ولكنني تصاممت عن النداء،

ذهبت الى المقهى لاقابل الجيزاوي وفي خاطري ان احصل على بندقية.

قلت له:

– عم جيزاوي اريد بندقية.

ربت على كتفي وضحك:

– لماذا

– اريد ان اقاتل اليهود.

انفجر ضاحكا وقال:

– تقاتل اليهود حاضر حاضر.

واعد لي كوبا من الكاكاو وقال لي: اشرب وبعدها سوف آخذك.

لم تعد هناك جدوى من العم جيزاوي، كل يوم يقول لي سوف آخذك، وفاتحت صديقي ابن الجيان وسألته هل بامكانه ان يذهب معي لمحاربة اليهود، ثم سألته:

– ولكن هل رأيت اليهود كيف هم.

اجاب

– رأيتهم لما ذهبت مع ابي الى تل ابيب، انهم مثلنا لكنهم يرطنون.

قلت له.

– ولكن اذا كانوا مثلنا لماذا نقاتلهم

قال

_ سمعت انهم يسرقون ارضنا ويقتلون اقاربنا.

هززت رأسي وقلت: اذن نقاتلهم كما يقتلوننا.

ذلك يوم مشهود حينما ذهبت قريتنا عن بكرة ابيها، شيبا وشبابا ونساء في هجوم صاعق على حي (هاتكفنا) اليهودي والذي كان بسبب لاهل قريتنا الكثير من المضايقات ومنه كانت تنطلق المدافع لتقصف قريتنا وتقتل شبابها واطفالها على حد سواء، قلت كان يوما مشهودا حينما سيطر اهل قريتنا على ذلك الحي واسروا منه من اسروا وفي الجامع تفرجت على اليهود، وعجبت ان اليهود لهم مثلنا وجوها وايدي ولكنها تقتل، في ذلك اليوم بحثت عن العم جيزاوي، وكنت اخبىء في سرالي موسى صغيرا من ذلك النوع الذي يسمونه ابو سبع كقات او قرن غزال، اخذته من المطبخ وقد لمحت الجيزاوي وهو يحمل على كتفه مدفع هاون بخطوات مكدودة وباردته قائلا:

– تظل تكذب علي، ها انت تحارب اليهود ولا تأخذني معك، انني لا اخاف منهم سوف اقتلهم بهذا. واخرجت من جيبي الموسى.

فقال لي:

– يا ولد سوف تكبر وانت تحاربهم لا تستعجل يومك سوف تكبر وانت تحاربهم.

استعيد كل تلك السنوات وتمر في خاطري مئات الاسماء التي اعرفها، جيرانا اصدقاء واقارب.. اين هم.

تخطر في ذهني كلمات الجيزاوي (لا تستعجل يومك سوف تكبر وانت تحاربهم).

اين هم هؤلاء، مات من مات، وتشتت من تشتت، ولا يبقى لي سوى الهم والالم والذكرى، استنفذت مخيلتي كل صور الماضي قريتنا ببيوتها الحجرية البيضاء، ببياراتها حاراتها وازقتها الصغيرة اشجار التوت التي لا تخلوا منها باحة منزل، تلك المقهى التي كنت اتسلل اليها عند العم جيزاوي.. واتساءل لماذا تعمر الذكرى الفؤاد واتساءل هل للذكرى علاقة بالوطن وما الوطن بالنسبة لفلسطيني ولد بعيدا عن الوطن وها انا المح كيف ان الموت يحصد شبابنا وهم يجتازون النهر ولكنهم لا يحملون الذكرى وحسب بل يحملون الامل وتساءلت هل الوطن هو الامل ام الذكرى ولم اجد لسؤالي جوابا وظلت كلمات الجيزاوي وذكراه في خاطري.

دارت الايام ولم التق خلالها بالجيزاوي، قال البعض انه غادر بعد الهجرة الى مصر حيث اقاربه هناك وقال آخرون انه لم يغادر القرية وظل يضرب على هاونه الذي غنمه من هاتكفا حتى نفذت ذخيرته وخاصرته قوة من الاعداء فأسرته، لكن آخرين يصرون على انهم التقوا به في الجامع الكبير في اللد وانه لم يؤسر ولم يستشهد، آخرون قالوا انه استشهد.

التقيته بعد عشرين عاما، كنت اعرفه شابا فتيا ولكن ها هو على اعتاب الخمسين يحمل ثقل قرن من الزمنان، التجاعيد في وجهه مفازاته القاسية، عيناه غائرتان وشعره ابيض بينما ظهره آخذ في الانحناء.

لاول مرة تساءلت هل هو حقنا الجيزاوي سألت عنه في تلك القاعدة التي تنام في حضن الجبل هل تعرفون اسمه ردوا. انهم لا يعرفون سوى اسمه الحركي "ابو يوسف" وانه يظل يتحدث عن يوسف الذي فقده منذ الهجرة.

وخطر في بالي هل كنى نفسه هكذا تعلقا بي، كلنا في القاعدة نحمل اسماء حركية وليس في مقدور الجيزاوي ان يتعرف علي بعد عشرين عاما..

كان يعمل طباخا لقاعدة التدريب، وكم من مرة طلب ان يقوم بتنفيذ عملية ضد العدو ولكن القائد يرد عليه دائما: الاعمال تكمل بعضها يا ابا يوسف والقتال مهمة شاقة يحتاج الى شباب، وتغرورق عيناه بالدمع ويغص حلقه ثم يهز رأسه دون ان يقول شيئا.

سألته يوما: هل انت الجيزاوي رد بالنفي ثم سألته عن أبي وعن فلان وفلان من ابناء قريتنا، سألني: هل انت من القرية قلت له انا يوسف وحدثته عن ابي واسرتي وقبل ان اتم حديثي هجم علي واحتضنني وهو يردد لماذا لم تقل لي لماذا لم تخبرني ان اسمك يوسف ابن الجيزاوي.

ويصمت ليضيف (ها قد كبرت يا يوسف وحملت السلاح).

ابتدأت جولة الذكريات قلت له:

– ها انت تكبر وانت تحاربهم.

ضحك وقال.

– ما زلت تذكر ما قلته لك من عشرين عاما، قل لي ها انت تشيخ وانت تحاربهم.

في ساعات كثيرة من اوقات الفراغ كان الجيزاوي يأتي الى مغارتنا ليحادثني وكثيرا ما كان يسهر معي ليلة حراستي حتى

الصباح ويتابع عمله دون ان يرتاح، وفي احدى الليالي كنت اقف كالعادة للحراسة وافتقدت الجيزاوي لأنه لم يأت كعادته ليسامرني، كانت ليلة قاسية وطويلة وباردة، وفي الصباح قبل ان ترسل الشمس اول خيوطها سمعت انينا خافتا واصوات اقدام تتعثر، امسكت برشاشي في وضع استعداد وصرخت:

– قف.. من انت.

كان صوت الجيزاوي يأتي وكأنه خارج من بئر غير ذي ماء، تقدمت نحوه كان يحمل على كتفيه رشاشين ويضع يده على جنبه الايسر الذي ينزف، لم استطع ان احادثه، حملته على كتفي نقلته الى مكان قريب ورحت اجري له بعض الاسعافات، كان لا بد من نقله الى المستشفى، امرني القائد ان ارافقه، فهو يعرف جيدا عمق ما بيننا.

في المستشفى اجريت له عملية لاخراج الرصاصات المستقرة في جسده، واخبرني الطبيب ان حالته خطيرة، وحين طلبت الجيزاوي ان يراني سمح لي الطبيب بهذا.

قال بصوت متعب:

– تظنون اننا لا نحارب، نحن جيل حاربنا ونحارب، لقد قضيت على دورية.

ابتسمت وقلت له:

– انتم جيل الابطال ونتعلم منكم.

قال

– الرشاش الاخر احضرته لك، لقد وعدتك برشاش منذ زمن بعيد وها انا افي بوعدي.

هزتني كلماته فلم استطع الاحتمال، غلبني الحزن وبكيت امامه

– كنت اعرف انك ستفعل ذلك ذات يوم.

– الآن بوسعي ان امضي مرتاحا.

قلت على عجل.

ستبقى بيننا، سوف تعيش وتواصل قتالهم

هز رأسه وابتسامة تغسل كل وجهه المتعب

– حسبي ان اموت شهيدا يا يوسف، والمهم ان تواصلوا المسيرة.

كنت اريد ان اقول اشياء كثيرة ولكنه اغمض عينيه لآخر مرة، وراح وجهه يستعيد حيويته القديمة وتلاحقف الصور امامي ممتدة من المقهى، والرجال الذين يتحدثون في همس والموسى ابو سبع طقات وكؤوس الكاكاو التي كان يخصني بها الجيزاوي وحين اقترب الطبيب ليغطي وجهه قلت له لا تفعل ذلك، فالشهداء ليسوا موتى واستشعرت قوة هائلة تملأ اعماقي.

في القاعدة خصني القائد بتعازيه وحين طلبت منه ان احتفظ بالرشاش الذي حمله معه الجيزاوي لم يمانع، مده الي وانا احس بيد الجيزاوي تشير الى قرية بعيدة مسروقة.

*****

الحب في جملة

تتدافع موجات البحر..

اطفال يتواثبون يضحكون..

يصرخون.. احدهم يبكي.. يتشاتمون.

اما هما فقد كان الصمت يلفهما.

هي تنظر الى الســـماء.. وحين نطق بتلك الكلمة، اثار مشـــاعرها دفعة واحدة، حاولت ان تستعيد ذكريات عديدة مرت بهما:

وردة بيضـاء.. فسـتان اصـفر.. رشـفة من فنجان قهوة.. ويده تلامس يدها تذكرت كلماته لها.. وانسلت الى نفسها احلام كثيرا ما داعبت مخيلتها.. ثوب ابيض فضفاض.. وزغاريد وفجأة قالت..

– كنت تضحك علي.؟

ولم يرد عليها.. بيده قصــبة طويلة يخطط بها على الارض كان يرســم تشــكيلات مبهمة وهو يحملق تارة بها دون أي معنى.

"الحب...."

اعادت كلمته مرة اخرى، ثم تساءلت:

ماذا يعني.؟ هل يريد ان يدفن كل تلك العواطف والاحلام مرة واحدة.؟

لو انها تمتلك الشجاعة لسألته.. لكنها تخشاه.. وهو يدرك ضعفها هذا في اعماقه انفعالات غريبة متدالخة يحاول ان يصرح بها، او ان يضبطها.. وكانت تلك مشكلته فردد بصوت هامس الحب .. الحب..

تساءل في نفسه عن المعنى الحقيقي للحياة، وعن اوهام وخيالات يصطنعها لنفسه، وعن ذلك الامل الذي كان يعيش له، زوجة.. ثم يحلم.. ببيت مستقل ينجو فيه بعيدا عن عالم البشر، في غابة بعيدة في اواسط غابات الكونغو به الف مفتاح، يضغط على احدها فتلبي رغباته جنية تأتيه بالمسويقى.. الكتب.. بالطعام ابتسم ونو يهرب من خيالاته وتذكر انه ليس وحيدا..

– لماذا تضحك.؟

– انا .. انا لا شيء.؟

بارتباك اجابها.. ونظر الى عينيها وكأنه يرايها لأول مرة.. بعينيها نظرة لم يدرك معانيها.

حينما قابلها لأول مرة احس بأنوثتها، وطغت عليه مشاعر غريبة لم يقدر على تفسيرها.. غريبة.. بل هي غريبة الفتنة، جمالها

من ذلك النوع الوحشي.. طويلة بيضاء.. داكنة الشعر.. وذات عيون صلبة.

سألته يومها، ولكنه لم يتذكر عما كان سؤالها. الشيء الوحيد الذي لا ينساه لون عينيها.. وبسرعة تداعت الى ذهنه كلمة حرفين... ح..ب

اية مشاعر تلك التي طغت عليه الآن فأنسته نفسه، وانسته جلسته معها.؟

منذ ذلك اللقاء الاول الذي عرفها وعرف لون عينيها فيه، ظلا على صـــلة وثيقة، كان يشـــعر نحوها بشـــعور غامض ولم يكن يملك معرفة حقيقية مشـــاعرها، اما الناس فكانوا يقولون عنهما وهما لا يفترقان:

– هكذا يكون الحب.

شربت القهوة، وشرب فنجانه، واسمك لفافة التبغ بيده واشعلها. قالت له:

– لم تعد ترغب في النظر الي.. كنت تقول عيناك بحيرتان من اللازورد تنبعان حبا وحكمة وقوة، الان لا تطيق ان تنظر الي..!؟

صامتا كان..

وصرخت بصوت مكلوم:

– انا لا اريد الحكمة، ولا اريد القوة اريد الحب فقط الحب.

اخذت تبكي، وبكاؤها كان اشـبه بحفيف الاشـجار حينما تهب نسـمة هواء جميلة بكاؤها كان هادئا يصدر من جوف مكلوم.

اما هو فقد بدأ وكأنه يعيش وحيدا في تلك البقعة المهجورة في اواســـط غابات افريقيا.. بعيدا عن كل الناس، بعيدا حتى عن حبيبته ذات العينين البحيرة من اللازورد.

سحق لفافة التبغ بقدمه، بعد ان اشعل منها لفافة اخرى حاول ان يرتب جملة يقولها لها.

ورأى ان كل الكلمات سوف تكون عديمة القمية.

وتمتم أي نفاق يمكن ان اصرح به في جملة مترابطة مفيدة.؟

في زاوية بعيدة كانا يجلسـان على شـاطيء بحر قليل الرواد.. ولم يكونا الوحيدين، هناك عشاق آخرون وكانت نجواهما.. اشبه بوشيش متقطع يأتي مع الموجة ثم يذهب.

فكر ان يقول لها اننا كالبحر، امواج تأتي ثم تذهب تعلوا. ثم تنخفض، تثور ثم تهدأ، ولكنه تذكر انه قال لها ذات مرة عيناك بحيرة من اللازورد.

"يا لسقم التشبيه" هكذا حدث نفسه.

اما هي فكانت تعتقد ان نارا تشـتعل في صـدره، ولعلها تحق معها الحب.. وتركت يدها تمسـك بيده، ثم اخذت تمسـح باليد الاخرى دموعها المنسـكبة.. هي تسـأل اين الحب.. الذي كان يحدثها عنه..؟

وهو يبحث في ذاته عن الحب..

تمر الارجل من امامها فلا يلتفتان ليعرفا اصحاب تلك الخطوات..

يمر الصـبيان من امامها ويلعبون ويتراشـقون بالماء ويصـبيهما رذاذ الماء فلا يلتفتان.

يمر بـائع الزهور مرة ثم مرة اخرى.. يحمـل الورد الاحمر والابيض وينـادي لفلـه وياسمينه.. هل تشتريان وردة.. من اجل الحبيبة.. من اجل الحب.؟

بدون ادراك يهزان رأسهما فيمر بائع الزهور وآسفا.

تنزل الدموع.. فلا يلتفت اليها.. يظل يبحلق في الافق..

يبحث عن كلمات..

وتسأله بصوت مختنق العبرات..

– لماذا لا تحدثني.. جملة واحدة فقط.. قل كلمة..؟ لقد كنت دائم الكلام عن كل شيء بيتهوفن.. الحلاج.. الوحدة.. فلسطين.. الرقص.؟! فلا يجيب.

تسأله بخيبة امل كبيرة..

– هل نمشي.؟

الاجابة صعبة، وهو يشعر بحالة من انعدام الذات هل يكذب.. ام يجرحها.؟

اين يمشي.. ها هي تقول هل نمشي؟. وهو يبحث عن معاني الحياة التي يمكن ان تربط بين انسان وانسان فتساءل عن الوفاء والاخلاص وعن الصراحة والصدق.. ثم وجد نفسه يقول انها الحب.

ازدادت جلبة الاطفال وكانت بيد احدهم وردة بيضـــاء هرب بعيدا عنهم، طارده الاطفال يصرخ الطفل يهرب باتجاههما. مدا الوردة اليه وهو يقول:

عمو عمو خذ الوردة.

كان يريد انقاذها..

قبل ان يتمكن صـــاحبنا من أن يمد يده، كان الاطفال قد امســكوا بتلابيب الطفل فوقع ارضـــا، وســـقطت الوردة من يده وتجمعوا فوق الوردة واســـتحقت بين ايديهم وهم يتخاطفونها..

اما هي فقد شـــاهدت الوردة وهي تموت.. وكانت تطلب منه برجاء ان ينقذ الطفل والوردة.. صرخ بهم.

– انصرفوا انصرفوا..

ولكن بعد فوات الاوان.

كان البحر ما زال يحتضــنها ولكن موجة عالية جاءت فغســلت اقدامهما.. واخذت معها فتات الوردة.. وكان الطفل ينشج نشيجا متصلا.

اما هو فقد قام وقال لها:

– هيا سوف نمشي..

*****

النـهر والقتلة

بلا تردد اطفأ النور، ثم استلقى على اريكة مهترئة الاذرع، كانت الساعة تجتاز منتصف الليل، وكان يتصفح كتابا قرأ فيه بعض كلمات ثم القاه جانبا..

اشعل سيجارة وسحب منها نفسا فكانت تلقي بصيص نور في ظلام الغرفة الحالك ها هو ينتظر، لم يجرؤ امام نظرات زملائه ان يناقش، انهم قد يعتبرون ذلك تجاذلا وهو الا يمكنه ان يتخطى اوهام العقل واحلام اليقظة، وتكهنات المستقبل.؟ هل يمكنه ذلك.؟

لكن ما هي تلك الاوهام وتلك الاحلام وتلك التكهنات.؟

هل ينتظر.؟

كان صادقا مع نفسه، وها هو يحاول ان يعيش لحظات مع نفسه ليحاسبها.

حين تحدث مع عامر انفعل وغضب منه وخاطبه بكلمات جارحة او هكذا ظنها:

– عن اية مراحل تتحدثون.؟ انكم تستمرؤون الاستسلام على الاستمرار.

ها هو يسترجع تلك الكلمات، ويشعر في اعماقه براحة حقيقية لموقفه الذي اتخذه من القيادة، وهو يعلم أي مصير قد يجره عليه هذا الموقف.

آنئذ خلد عامر الى الصمت، لم يجادله، ولكنه بعد لحظات اخرج من جوفه كلمات وكأنه يستل نصلا:

– الا تعتقد معي ان الانحناء، انها لعبة كل الجبناء، المهارة ان تجيد الصمود جون ان تنتحر تلك المهارة.

قال ذلك محتدا، واخذ يلعن كل الذين يتحدثون عن الانحناء للعاطفة وتساءل:

– اهي انحناءة الموت ام الاستسلام.؟

ولم يكد في العثور على جواب، ومد يده وحركها في الهواء وخاكب عامرا بانفعال:

– اية انحناءة تعني يا عامر.؟ انها انحناءة الموت والاستسلام.

وتمتم عامر:

– انك تقسو علينا وعلى نفسك.

لم يكن في وسعه ان يغير موقفه، لا لأنه عنيد كما وصفه البعض وليس لأنه غير واقعي كما يراه البعض الآخر، بل لأن موقفه جاء عن ايمان وقناعة، ولذا كان الجميع يخشونه ويحترمونه في آن واحد.

قال له عامر: اظنك لن تستمر طويلا.

ضحك وضحك ثم قال: لكنني لن انحني.

وشرح له عامر انهم لن يتركوك تستمر الا تدرك ذلك.؟

– ليس ثمة شيء نخشاه.

واسترجع في ذهنه آخر لقاء بالقيادة والان فهم قصدهم من اصرارهم على نقله الى مهمة اخرى بعيدة ومرفهة، ها هم يحاولن اقصاءه ولكنه لن يتيح لهم ذلك فطلب تأجيل المهمة فأعطوه مهلة.

حين التقى بزملائه قالوا له ان امر نقلك ليس موجها ضدنا جميعا وتحدث اليهم بحماس عن العاصفة الهوجاء ولكنه لم يحبذ هذا الاسم، وتحدث معهم بنبرة واثقة عن العمل الصامت وعن النهر الذي سيجرف كل النفايات التي تطفو على سطحه وحينما سأله احدهم:

– ما العمل.؟

صمت.. وبادره آخر بسؤال جديد:

– أليس من واجبنا ان نجرف كل النفايات التي تشوه صفاء النهر.

ابتسم وتمتم:

– بلى بلى حياة النهر تتجدد وتتحرك. وكرر كلماته (تتجدد وتتحرك).

وسأل ثالث:

– اين ارادتنا نحن هل ننتظر.؟

تحدث مع صحبه عن التغيير وحملوه مسؤوليته، شعر بعبء تلك المسؤولية ولكن قدره ان يقبل، ويعرف ان الوقوف في وجه القتلة عمل بطولي وان كان في بعض الاحيان نوعا من الانتحار، وها هو يقبل بلا تردد.

انتهت سيجارة فرماها ارضا، وتحسس وضع مسدسه على الطاولة التي تنتصف الغرفة شعور بالانقباض يكاد يخفته، وفكر: هذا الظلام الذي يغرق فيه منذ لحظات ابتدأ يعتاده وتساءل: هل بامكان المرء ان يعتاد الظلام.؟

لعن في اعماقه كل الصور التي تراءت الى ذهنه "رصاصة في ظهره" "الصحف تنعي البطل الشهيد" "يسوح في ارض الدنيا يغترف من ملذاتها".

وتخيل نفسه مشنوقا، ومرة اخرى مطاردا، وها هو يحاول ان يطرد كل تلك الخيالات من ذهنه وتساءل: اهو الخوف من خطوة جديدة.

كانت صورة اشباح سوداء مقنعة تحمل اسلحتها، تمسكه وتتقاذفه كالكرة وهي تقهقه تأتيه ويذهب.

ظن ان الظلام سبب ذلك، تحرك بتؤدة واشعل نور غرفته فجاءه مبهرا وتخيل ان النور سيأتي فيبتلع كل تلك الاشباح والاوهام والخيالات، وها هي تطارده مرة اخرى.

تذكر حديثه لاصدقائه عن النهر وعن.. عن القتلة، آه انهم هم الاشباح، اعترته رعشة خفيفة وكأنه يكتشف فجأة عالما من الحقيقة المؤلمة ودد لز يمقض هلة نلك الاشباح فيقضي عليها.

لم يعد بمقدوره ان يحتمل اكثر فقرر الخروج، سوف يتمشى في هذا الليل البهيم فتؤنسه خشخشات الشجر، لم يكد يفتح الباب

حينما تراءى له اصوات اعيرة نارية من بعيد، فاجفل ثم احجم عن الخروج وظل مستمرا وراء الباب.

ابتدأت اصوات اقدام تعدو تصل الى مسامعه واقتربت اكثر فأكثر وسمعها تجتاز سلم منزله وسمع طرقات عنيفة على باب شقته. اعترته رعشة وامسك فتداعى الى مسامعه صوت سعيد وهو يصرخ: افتح.. افتح..

عرف صوت زميله فتح له الباب ثم احكم اغلاقه.

تهالك سعيد على المقعد وهو يردد: حاولوا اغتيالي القتلة القتلة.

مرة واحدة انثالت الى ذهنه كل تلك الخيالات والؤى التي حاول الهرب منها، صور الاشباح والقتلة، نعي الشهيد في الصحف.

وقال لصديقه:

– اطمئن، لن يجرؤا على اقتحام الشقة.

وتساءل في اعماقه الى متى ننتظر.

ولم يفكر في الاجابة، كان ذهنه مشغولا بالاشباح والقتلة وبالنهر الذي يجري.

*****

أميرة الماء

لم اكن بعد قد تنبهت الى ذلك اللون القاني الذي يعلو سحنتها.

– من انت.؟

– اميرة الماء.

– من اين جئت.؟

– من اعماق البحار.

– من اعماق البحار.؟

– نعم. نعم.

– وماذا تصنعين.

– جئت اوقظك.

كنت اقرأ الاخبار التي تتابع، قتال في الشياح، قتال في عين الرمانة قتال في نهر البارد، قتال.. قتال.. قتال.. واخيرا كان تل الزعتر.

– هل سمعت عن تل الزعتر.؟ سألتها محتدا.

ابتسمت اميرة الماء، وقالت سمعت عن تل الدم، وضحكت ضحكة كأنها تسخر مني.

لم استطيع تمييز ملامحها، كانت لا تكاد تبين حتى تختفي.

– اين انت.؟

– انا هنا.. وسمعت قهقهتها.

– هنا..! اين.؟!

– في كل مكان.

– لكي لا اراك..!

– لن تراني الى اذا رغبت في ذلك..

– اين لونك القاني.؟

قالت وهي تبين، وتتضح بعض معالمها:

انا كالمرحلة، لي كل الالوان، ولا لون لي.

المرحلة اية مرحلة تعنين.!

قهقهت اميرة الماء..!

– انت فلسطيني ولا تعرف عن المراحل؟!

قلت لها:

– اتعنين مرحلة تل الزعتر..

فعاجلتني:

– اهي بلا لون؟.

– انا اسألك.. قلت ذلك وانا اتميز غيظا.

ماذا جرى لي.؟ يتصبب العرق من جبيني، اشعر بارتعاشة.! ماذا دهاني حينما تحدث لي عن تلك الفتاة التي خرجت عارية من تل الزعتر، شعرت بقشعريرة ولم اتابع روايته، كنت اتخيل مشاهدة كثيرة.. وتواريخ اكثر.. ثم صحت فيه مفزوعا.

– عارية.. اقلت عارية.!

هز رأسه وضحك:

– ماذا يروعك في هذا.! نعم عارية.

سألته بسذاجة:

عارية لماذا؟ اعارية والدم ينزف من كل زاوية في المخيم.

قال:

– الم تسمع ما قلت انها كات تغطي عرينا جميعا.؟ انها فاطمة الم الم تسمع بالممرضة فاطمة التي مزقت ثيابها لاسعاف الجرحى.

الدماء في تل الزعتر تنزف، لونها احمر يا اميرة الماء، وأنت تسألينني اهي بلا لون؟ وتأتين الي ترشحين سخرية وسكاكين.

– ماذا تريدين مني؟! من انت! من انت. صرخت.

– انا اميرة الماء.. جئتك من اعماق البحار.. واظهر لمرة واحدة حينما تصبح دنياكم بلا لون.

قلت لها: لنا دنيانا، ولونها بلون تل الزعتر.. انت تسمعين عن تلال الدم اما نحن فتلال الدم والموت واصبر والخطايا.

قالت:

– ها انت تعترف.. اعد ثانية.. انت تعترف.. تعترف.

– اعترف بماذا.

اعترفت بالدم والموت والخطايا.. قالت هذا وتابعت انا جئت لأعسل الدم والموت والخطايا.

– لكن لا بديل للدم والموت.. هل زرت تل الزعتر.؟!

لا، زرت اولئك الذي يصرخون لأجله..!

– من:؟

الذين يصرخون لأجله.

هززت رأسي بأسى وقلت.

– انت اذن اميرة الخطايا، تزورين اولئك الذين صنعوا تل الدم مرتين، وما زالوا يصرخون باسمها.

– قلت لها لا.. انهم يزيفونها.. نحن نصنعها.

– انتم من انتم.؟!

– نحن الذي نغرق بالدم والموت والصبر ولا نصرخ ضحكت اميرة الماء.!

– لكن هم الذين يلونون المرحلة كما يشاؤون، قالت ذلك واختفت، ناديتها: يا اميرة الماء.. يا اميرة الماء.. اسمعيني المرحلة تذهب وتأتي مراحل اخرى، زوري تل الزعتر وانت تدركين.. يا اميرة اسمعي اسمع..

استيقظ مفزوعا وانا انادي على اميرة الماء كانت امي قد تسللت بجوار سريري وهي تمسح رأسي يحنو وقالت:- اهو حلم مفزع.؟

تمتمت:- بل هو كابوس المرحلة.

*****